

# طليطلة

## زهرة أسبانيا وتاريخها المجيد

مدير - د. كاظم شمهود ظاهر

كانت طليطلة قاعدة الغوط ودار ملكتهم، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ نشأتها والأقوام التي شيدتها واستوطنتها. ويذكر المؤرخون بأن معنى طليطلة هو "فرح ساكنيها" وذلك لعظمتها وموقعها المميز والحصين حيث تقع على قمة جبل، ويلتف حولها نهر الناجة العميق من جهاتها الثلاث ماعدا الجهة الشمالية.



Toledo

طليطلة

أنها كانت محفورة حفرا عميقا في الآجر، ولهذا أبقوها على حالها. واليوم نشاهد الواجهة بأجمل زينتها المعمارية بعد الترميم الذي قامت به بلدية المدينة. وقد انتشر أسلوب هذا المسجد إلى كافة بلاد الأندلس وأصبح الميزة الخاصة لعماره طليطلة.

### القصر

كتب أحد المفكرين الأسبان واصفا أهمية القصر والمدينة بالنسبة إلى أسبانيا. فقال: "إذا كانت طليطلة زهرة إسبانيا فإن القصر زهرة طليطلة". يذكر أن القصر أثر روماني قديم وعندما دخل المسلمون المدينة جددوه وحصنوه وجعله الحكم بن هشام، أمير الاندلس، سنة 797 م مقرا للإدارة والحكم. ويقع القصر في أعلى مكان من المدينة، وفي القسم الشرقي منها، وقد اتخذ هذا القصر صفة ←

يعتقد أنه أول مسجد أسس في المدينة بعد دخول المسلمين إليها، وهو يخلو تماماً من الزخارف والنقوش الجميلة التي نشاهدها في مسجدي قرطبة وغرناطة. وبعد احتلال المدينة من قبل النصارى سنة 1085م حوّل المسجد إلى كنيسة تسمى نور المسيح (ع). ويعتبر المسجد الوحيد في المدينة الذي لا زالت آثاره باقية وقد مسحت نقوش القبة الإسلامية وحورت ورسمت مكانها صور دينية وصلبان. وعلى الواجهة توجد كتابة بالخط الكوفي وهي "بسم الله الرحمن الرحيم. أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله فتمم يعون الله على يد موسى بن علي البناء وسعادة فتم في الحرم سنة تسعة وثلاث مائة" ونفهم من ذلك أن التاريخ هو 309 هجرية (921 م). وقد بقت هذه العبارة ثابتة لحد هذا اليوم ويبدو أنها كانت لا تشكل أي خطر أو تهديد للنصارى. كما

افتتحها طارق بن زياد سنة 92 هجرية (711 م). وضمن توزيع القبائل العربية على المدن الإسبانية، كانت طليطلة من نصيب القبائل اليمنية. وكانت الثغر الأوسط والمهم في شبه الجزيرة، وقد اتخذت في بادئ الأمر مقراً لأهم القيادات العسكرية الإسلامية في هذه المنطقة.

تبعد طليطلة اليوم عن مدريد 75 كم ويربطها بالعاصمة طرق مواصلات حديثة منها طريقان للسيارات وخط للسكك الحديدية. وفي الفترة الأخيرة ازدادت حركة السياحة إليها من كل أنحاء العالم وذلك لكون المدينة كانت قد تعايشت فيها الأديان الثلاثة: الإسلامية والنصرانية واليهودية. وقد تركت هذه الديانات بصماتها على المدينة إلى يومنا هذا. ويشاهد الزائر اليوم آثار المساجد والكنائس والمعابد اليهودية والأزقة والأحياء القديمة بالإضافة إلى الأسوار والجسور والقصور وغير ذلك.

والداخل إلى طليطلة عليه أن يمر من بابها العربي القديم الذي يسمى "باب السهل" ويسمى اليوم "بورتا دي بساغرا" وهو الباب الرئيسي الكبير لمدينة طليطلة ويعتبر ملتقى الطرق المؤدية إليها كما يعتبر من الأبواب الأندلسية القديمة. وفي سنة 1550 عملت له واجهة كبيرة من قبل المعماري كوبا روبياس تكريماً للملك كارلوس الأول. ثم وسّع الباب في زمن الملك فيليب الثاني وعمل له برجاً كما نصب على واجهته شعار يحيط به تسردو رأسين. وعلى مسافة قليلة من باب السهل، ونحو الشرق، ينتصب هناك باب آخر يدعى باب الشمس. ويذكر أنه قد شيد في زمن المأمون ذي النون حاكم طليطلة في بداية القرن العاشر. ويعتبر هذا الباب من أجمل الأعمال العمرانية التي خلفها العرب في المدينة، ويعود الفضل في ديمومه إلى الترميمات والتصليلات التي أجريت عليه في الفترة الأخيرة. ونشاهد على واجهة الباب قوساً كبيراً على شكل حدوة الحصان وفي أعلاه أفواس أخرى متقاطعة وخماسية. كما يوجد على الواجهة شمس وقمر منحوتان على حجر المرمر، وربما جاءت تسميته من ذلك.

### مسجد باب المردوم

يعتبر هذا المسجد من أقدم المساجد الإسلامية كما



The Arab Wall

السور العربي



Alcazar

القصر



Al-Qantara

القنطرة



Another view of Bab As-Shams (Puerte del Sol)

منظر آخر لبوابة الشمس

طرز المسجد يعقوده وأروقته وأعمدته وأقواسه وحتى الزخارف العربية كما نشاهدها في المعبد المذكور سابقا. وإلى جانب هذا المعبد يقع منزل المصور المعروف الغريكو 1540م وقد حوّل اليوم إلى متحف يختص بالزوار خاصة الأجانب. وقد رسم الغريكو مئات اللوحات الفنية بأسلوب تعبيرى رائع وألوان انطباعية أحيانا وكانت غالبية مواضيعها دينية.

واشتهرت طليطلة بالصناعات الحرفية منها حرفة التطعيم سواء كان ذلك بالذهب أو الفضة أو الرصاص أو غيره. وقد جلبها العرب إلى أسبانيا وأصبحت تزين بها السيوف والخناجر والدروع وأشكال التحفيات وغيرها. واشتهرت بصناعة الخزف وأحواض الحمامات ذات الألوان الخضراء والزرقة. كما اشتهرت بصناعة الحلوى العربية حتى اليوم. ومنها ما يسمى مانابان. وهو نوع يشبه البقلاوة.

وآثر طليطلة اليوم بشاهد ويجد آثار النقاليد الصناعية العربية تباع في أسواقها مثل التحفيات الفنية النادرة والمصنوعة بمهارة ودقة خاصتين. مثل مقابض السيوف المزينة بالعاج والأحجار الكريمة. كما لا زال أهل طليطلة يحتفظون بتقاليدهم وعاداتهم الإنسانية الكريمة والطيبة. ■

ولكن بقي بناؤه وطرزه الإسلامي قائماً حوالي قرن ونصف حتى مجيء الملك فرناندو الثالث حيث أمر بهدمه بإشراف الفس الفرنسي الأصل والذي يعتقد أن اسمه بنارده سنة 1227م. وقد أنشئت الكاتدرائية على الطراز الغوطي الفرنسي. ويذكر أن بناءها استمر إلى سنة 1492م. وعند الدخول إلى المعبد نجد انفسنا أمام أساليب فنية متنوعة من المنحوتات والصور الدينية والفسيفساء والزجاج الملون وعدد كبير من الغرف والمصليات والمحاريب. ولكن من أهم ذخائر هذه الكاتدرائية هو علمي السلطان أبي الحسن المريني حيث علق هذان العلمان في قاعة الثياب المقدسة. وقد غنمهما الأسبان في معركة سالادا أو ما يسمى بموقعة طريف التي حدثت سنة 1340م بين الجيوش الإسلامية وبين الأسبان وخسر المسلمون المعركة. والعلم الأول كتبت عليه عبارات بالخط العربي منها "النصر والتمكين والفتح لمولانا أبو الحسن أمير المسلمين". أما العلم الثاني ففيه عبارات وزخارف متنوعة منها "أعوذ بالله ورسوله من الشيطان الرجيم".

وفي الجزء الغربي من المدينة يقع المعبد اليهودي المسمى سانتا مارية البيضاء. ويلاحظ أن معظم المعابد اليهودية مبنية على الطراز الإسلامي وبعضها على

عسكرية ومقرا للحكم. كان مربعاً أو مستطيل الشكل ومحاطاً بأبراج مربعة الشكل أيضاً وعلى الطراز الأموي. وكانت أساسات الجدران من الطين الجفف (اللين) وهي ميزة معمارية موجودة في الطراز الإسلامي. ولم يبق اليوم من هذه العمارة الإسلامية سوى قوس مزخرف يقع في الجزء الجنوبي من القصر وله مقاييس 1.86م عرضاً و 3.38م ارتفاعاً. ويذكر أن عبد الرحمن الثالث أمر سنة 932م بانشاء القصبية وتجديد وتطوير القصر وجعله على الطراز الإسلامي. وبعد احتلال المدينة من قبل النصارى أضيفت إلى القصر عناصر معمارية جديدة. خاصة الطراز المسيحي. وفي سنة 1810م أشعل الفرنسيون النار فيه أثناء احتلالهم لأسبانيا. وفي سنة 1936م حوّل القصر إلى ركام وأنقاص أثناء الحرب الأهلية الأسبانية. ثم أعيد بناؤه اليوم على الطراز المسيحي القديم وأصبح قبلة للسباح.

## الكاتدرائية

تعتبر كاتدرائية طليطلة من أهم المعالم الأثرية المسيحية في هذه المدينة وهي تحتل المسجد الجامع الكبير. وعند سقوط طليطلة حوّل المسجد إلى كنيسة